المقدمة

مع أن الكثيرين يجهلون اسم هرمس إلا أن هذه الشخصية عاشت في عالمنا منذ بضع آلاف من السنين، وستبقى تعيش فيناوفي تراثنا وفي كياننا إلى الأبد نحن أبناء آدم في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها بمختلف أجناسنا وألواننا ولغاتنا وثقافاتنا، وبمختلف أديانا ومذاهبنا. لذلك كان من البديهي أن يكون لهرمس الكثير من الأسماء والشخصيات تبعاً لتباين الحضارات والشعوب، فكان هرمس وهرمز وأخنوخ وخنوخ وإدريس وسواه. كذلك اتخذ هرمس شخصية إله ونبي وطبيب وفيلسوف وعالم.

ونظراً لعالمية هرمس فقد تنازعته الأمم والثقافات، وكل ينسبه إليه، وتنازعت كتبه أيضاً الأمم واللغات وكل إليها تنسبه.

فمن هو هرمس هذا؟ كيف بدأ وإلى أين انتهى؟ ومن البداية وحتى النهاية كيف تطور؟

هل هرمس شخص عادي أو إله أو نبي؟

هل يتمتع بشعبية محلية أوقومية أو عالمية؟

إلى أي أمة ينتسب؟

ما الذي قدمه ليستحق التخليد الذي حصل عليه؟

هذه الأسئلة هي غيض من فيض. إذ ترسم الكثير الكثير من التساؤلات أمامنا؟ فهل هناك جواب علمي؟ أو أن التخبط الذي وقع فيه أهل العلم منذ القديم مازال قائماً؟

ولكن يبدو، على كل حال، أن هرمس يتمتع بشخصية ذات سحر وتأثير كبير دخل حياة الناس في مختلف الأوطان والأقطار. فهو في كل مكان وفي كل زمان يتمتع بنفس الشعبية وقوة التأثير.

فهرمس اسم أطلق في وقت محدد (في الثقافة اليونانية) على شخصية يبدو أنها تسبق الثقافة اليونانية بأجيال، وهو نفس الشخصية التي سمتها الفرس (ابنجهد)، وسماها اليهود

أنوش أو أنوخ و أخنوخ، وسمتها الصابئة بوذاسيف، وسماها المسلمون إدريس النبي ﷺ. إضافة لأسماء أخرى.

ولمنع التخبط الذي قد وقع فيه الباحثون عن شخصية هرمس وأصله أرى من الواجب علينا تلمس شخصية هرمس، وبعد ذلك تدقيق الأسماء التي أطلقت على نفس الشخصية في مختلف العصور والمناطق. وتبين فيما بعد مدى الارتباط فيما بينها وحقيقة هذا الارتباط.

أجمعت الآراء والأبحاث التي جاءت عن هرمس في مختلف الأزمان والحضارات (الشعوب) على إعطاء هذه الشخصية الصفات التالية:

1 ـ هرمس شخصية فريدة مميزة.

2 ـ ذات ثقافة واسعة وعلم مميز في زمن ساده الجهل.

3 ـ لهذه الشخصية صفة تتعلق بالله، فهي عند البعض صفة إله، وعند الآخرين نبي مرسل، إلا أنه في كل الحالات احتفظ بتقديس ما.

4 ـ تحدد فترة هرمس بزمن سابق على الطوفان (طوفان نوح)، أو بعبارة علمية، عند فجر عصر الكتابة أو بزمن يسبقه، أي حوالي الألف الرابعة أو الثالثة قبل الميلاد.

5 ـ كان هرمس حكيماً متعبداً طاهراً هادياً (أو داعياً لدين ما) وقد كوفئ من عند الله (بعضهم يقول بأنه خالد في الجنة أو أنه رفع مكاناً علياً...). هذه هي الملامح المميزة لشخصية هرمس.

والملاحظة الأولى الناتجة عن تطبيق ملامح هذه الشخصية على الأسماء المختلفة باختلاف الثقافات والديانات التي أطلقت على شخصية هرمس أو ما يشابهها، لابد أنه كان في فترة ما (شخصاً أو على الأقل، عدة أشخاص) يتمتعون بهذه الصفات وهذه الشخصية، وأن التواتر للأخبار التي وصلتنا عن الشخصية بقوته وديمومته وانتشاره يدل دلالة قاطعة على وجود أساس ما لهذه الشخصية!.

حياة هرمس:

إن ولادة هرمس تعود لفترة الألف الثالثة أو الرابعة قبل الميلاد وذلك بسبب مايلي:

حددت الروايات الدينية أنه إمّا قبل الطوفان أو بعده، والطوفان يقدر حوالي الألف الرابعة أو الثالثة قبل الميلاد، وهذا موافق لبعض الحسابات التي أوردتها الروايات اليهودية

والمسيحية فهو عندهم نبي ولكنه غير يهودي، ولم يعدّه اليهود من أنبيائهم. كذلك الإسلام عدَّ إدريس سابقاً لإبراهيم (الألف الثانية)، والروايات التي تعُدُّه بابلياً تقرنه مع بناء بابل بعد الطوفان، أما الروايات التي تعُدُّه مصرياً فهي تقول أيضاً بأنه وجد بعد الطوفان، وأنه بنى الأهرام، أي من زمان الفراعنة (عصر بناة الأهرام) وهذا يطابق افتراضنا. أما الفرس فهم أيضاً يعُدّونه أول المتنبئين وهو بوذاسيف الذي ظهر بعد مضي سنة من ملك طهمورث، وأنه أول من أتى بالكتابة الفارسية، وهو ما يؤكد نفس الفترة. كذلك ادعت الفرس أنه هو (أنجهْد) وأن جده جيومرت أي آدم.

كذلك يمكننا التأكد من هذا الافتراض لما نسب إلى هرمس من تأسيس: فهو أول من حفظ العلوم بالكتابة، وذلك كما جاء لدى المصريين والبابليين والفرس، والكتابة ظهرت في الفترة التي قدرناها.

وهو أول من تكلم في الأمور السماوية أي علم الفلك والنجوم والتقويم، فلهرمس ارتباط كبير بما يسمى (الأسطورة الشمسية) فهو السابع بعد آدم عند العبرانيين، ورقم سبعة يعني الأسبوع، وهو قد عاش (365 سنة) وهذا الرقم هو عدد أيام السنة وهو خالد دائماً رمز الشمس التي تتجدد كل يوم، وقد قبضت روحه عند مطلع الشمس (كما جاء في بعض الروايات) وهو ذو ارتباط مع أخناتون (مؤسس ديانة عبادة الشمس أول الموحدين).

وهذا مايؤكد الزمن المفترض؛ لأن اكتشاف التقويم وعلم الفلك يعود لتلك الفترة.

كذلك هو أول طبيب، وتاريخ الطب سواء في مصر أو بابل يعود للألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد.

وهو أول من خاط الثياب، وثابت علمياً وأثرياً أن أول طريقة كانت في استخدام ما يستر الإنسان كان لف القماش لفاً، وأن أوائل الخياطة قد وجدت في مصر وبابل في فجر حضارتها بنفس المدة المقترحة. أما عند اليونان أو الرومان فهو قديم جداً أيضاً، فقد أورد ذكره هوميروس من العصور المتقدمة في اليونان، واعتباره إلهاً هناك يعني خلوده من الأزل إلى الأبد. ومن دراسته في تراثنا العربي وتراثنا القديم يمكن إثبات انتقال فكرته إلى اليونان والرومان عبر سوريا وعبر المنطقة العربية.

أما اسمه فهو عند الفرس (أبجهد) أو (بوذاسيف)، وعند العرب هرمس أو هرمز أو

إدريس، وعند اليهود والمسيحيين أخنوخ أو خنوخ أو أهنخ أو أنوش وأنوك وأشنخ، وهو أيضاً (الباز). وعند الرومان (مركوري) وأرميس، وقد قابله (نولدكه) بأندرياس (طاهي الإسكندر) وقيل هو أخناتون التي حولت إلى أخنوخ. و(أوزريس) التي حولت إلى (إدريس)، وقيل أخو إلياس أو الخضر... أو غيره من الأسماء كما سنرى، ويرتبط اسمه في معناه بالحجر أو الأشياء القاسية، فهرمس من (هيرما) وهي كومة الحجارة التي تعتبر فاصلاً أو علامة للحدود سواء كانت أرضاً محددة أو دولة. وفي العربية قد تكون إدريس محولة من (درس) أي القوي القاسي، وذلك في بعض الروايات كما سنرى. واستناداً لذلك وللمدة التي افترضنا وجودها، ولكونه مؤسس الديانات وأول من تعبد وبنى الهياكل، فهل لهرمس ارتباط بنصب الحجارة التي دعيت (كولومي)، والتي حيرت العلماء حتى الآن، والتي تعود بتاريخها لتاريخ يقارب نفس المدة المقترحة لهرمس تلك الحجارة التي تؤلف من حجر أفقي ضخم مقام على حجرين قائمين ضمن دائرة مشكلة من حجارة ضخمة، والتي فسرت باتصالها بالنظام الشمسي أو بالشمس، والتي اكتسبت وما تزال نوعاً من التقديس؟

مكان ولادته وأصله:

ادعت الفرس أنه ولد فيها، وادعت بابل نسبه إليها، ومصر أيضاً، واليمن التي اعتبرته من أجدادها، وابن كثير جعله يتصل بعمود النسب مع النبي ﷺ، واليونان اعتبرته من آلهتها والرومان كذلك. أما اليهود فصحيح أنهم لم يعتبروه يهودياً ومن أنبيائهم إلا أنهم أحاطوه بتقديس كبير، كذلك لدى المسيحية. إلا أن التحديد المنطقي لمكان ولادة وحياة هرمس (ونقول هرمس كشخصية ولا نقصد ماتعنيه من اتصال مع اليونانيين فقط). فإنه واضح بأن تحديد منطقة محددة يعتبر مستحيلاً، إلا أن المنطقة الكبرى هي ارتباطه بمناطق الحضارات الأولى أي بلاد فارس وتركيا والعراق وسوريا وشبه الجزيرة مع اليمن ومصر، وبتحديد أكثر فإن لهرمس ارتباط خاص وقوي مع الفلك الذي نشأ في بابل، ومع بناء بابل، وهناك، كما سنرى، ارتباط كبير بين هرمس وبناء مدينة (الرها)، وكذلك الارتباط مع الطوفان الذي وقع في نفس المنطقة على الغالب.

وإن ادعاء ارتباطه باليمن لايشكل عائقاً؛ لأن أهل بابل، على الغالب، هم عرب بالأساس يمثلون هجرة من هجرات العرب القدماء من اليمن إلى العراق أو سورية أو مصر.

وإن ارتباط هرمس بمصر لايشكل عائقاً؛ لأن أكثر الأنبياء قد وجدوا هناك. وهناك رحلات وهجرات ثابتة قد تمت من العراق إلى مصر، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام قد سافر من بابل إلى مصر وموسى عليه السلام قد دخل مصر من المناطق السورية (بمعناها الواسع).

ويؤكد هذا الاتصال بمنطقة مابين النهرين ومن ثمة مصر قضية اعتباره مبدع الكتابة والخياطة وعلم الفلك والطب والفلسفة وغير ذلك. إذا يمكننا الافتراض أن منطقة مولده قد تكون منطقة الرافدين (وليس مابين النهرين) ومن ثم انتقل لمصر.

وثبت إطلاق اسم هرمس لأكثر من شخص، فقد قيل هناك ثلاثة هرامسة. وجاءت التوراة لتخبرنا عن شخصين باسم خنوخ أو أخنوخ.

أما ماقيل عن أن أصله من أركاديا من جبل (سيلون) فإن هذا يعني انتشار ونشأة الاعتقاد به حسب الاعتقادات اليونانية وهو لايؤثر على افتراضنا.

ويبدو أن هناك تعاليم متوازية نقلت بالتواتر عن هرمس، فقد ارتبط اسمه دائماً بمعاني دينية، فهو عند الديانات المقدسة المرسلة نبي، وهو عند الفرس قد ارتبط بتقديس ما، وهو في التاريخ القديم أيضاً ارتبط بنفس القدسية، وهو عند الصابئة أيضاً مؤسس ديانتهم كما يعتقدون. وقيل: إن معنى (دين القيمة) في القرآن الكريم إنما قصد بها دين هرمس. وهرمس إله عند اليونان والرومان، وفي التاريخ القديم عموماً، أضف إلى ذلك تمتع شخصية هرمس بنفس القدسية والاحترام لدى الطوائف المنبثقة عن الكثير من الأديان، سواء منها السماوية أو الأديان الأخرى المعروفة في منطقة الحضارات القديمة.

وفي اعتقادنا نحن المسلمين وجب علينا التقيد بنص القرآن الكريم، فإدريس نبي مرسل ورفعه الله مكاناً علياً، وقد كان صالحاً تقياً. وليس من شيء أكيد عن ارتباط إدريس، عليه السلام، بشخصية هرمس أو أخنوخ سوى ما جاء من الإسرائيليات التي دخلت إلينا في كتب السيرة والتفسير، ثم إلى التاريخ، وهذا ناتج عن تشابه في بعض نواحي الشخصية لكل من إدريس وهرمس وأخنوخ. ولكن إدريس، عليه السلام، هو النبي الوحيد الذي قال عنه الله تعالى بأنه رفعه مكاناً علياً. وعلى الرغم من ذلك فإن شخصية هرمس (التي لاتؤكد أو نشكك باتصالها مع إدريس النبي) قد أثرت في تراثنا وفي فلسفتنا العربية وفي مذاهبنا الإسلامية، وإن تأثيره هذا أيضاً قد سبق ظهور الإسلام والمسيحية واليهودية، فعبد في

رؤوس الجبال، وبنيت له الهياكل، وقد كان يعادل أيضاً الإله العربي القديم (حدد).

عاش أخنوخ أو هرمس أو إدريس اثنين وثمانين سنة حسب الكثير من الروايات، أما الروايات العبرية فقد قالت بأنه عاش ثلاثمائة وخمسةً وستين عاماً.

أما وفاته فقد أحيطت بهالة من الغموض. فعند الأمم التي اعتبرته إلهاً لا مجال للبحث في وفاته، لأن صفة الألوهية تجعله خالداً، أما في الديانة اليهودية والمسيحية فقد عاش خنوخ مع الإله وسار معه، وقد خلد في الجنة جسداً وروحاً، على اختلاف في الروايات بين ذوقه الموت أو عدمه.

أما في الإسلام، فإذا تجاهلنا الروايات الإسرائيلية عنه، فإن القرآن الكريم لايذكر عن وفاته أو مدة حياته شيئاً. ولكن عبارة «كان صدِّيقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً» فـ (كان) تعني الماضي. و(رفعناه مكاناً علياً) قد تعني المنزلة والمكانة وقد تعني سواها.

هرمس عند العرب:

كما وقع الاختلاف بين الأمم على نسبة هرمس وعلى دينه، فقد وقعت نفس الاختلافات عند العرب، فاليمن تعتبره يمنياً والعراق بابلياً ومصر مصرياً، وله في جبل لبنان ضيعة باسمه، فقد أورد ابن عساكر في تاريخ دمشق عند ترجمته للقاسم بن شهر أبي سفيان الدمشقي الذي كان بعث في عام 197 هـ فقال: «وحكى عنه أنه كان بساحل دمشق مرابطاً، إلى أن وقعت فتنة هناك وكثر البلاء فتنحى عن موضعه، وخرج إلى ذروة جبل لبنان مما يقابل الساحل في موضع يقال له «هرميسيا».

ويؤكد ذلك ماجاء في كتاب تاريخ لبنان تأليف، العلامة الأب مرتين اليسوعي ترجمة رشيد الخوري الشرتوني ص593 طبعة بيروت 1889 قال:

«إن التثليث الجبلي (الذي كان لأهل مدينة جبل أو جبيل) له الأهمة الكبرى في ديانة لبنان... وعندهم أيضاً تثليث ثالث مؤلف من أوران (السماء) وملك وثوت (هرمس أو هرمس وهو عطارد).

ويذكر الهروي في كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات) أن في الكوفة مقاماً لإدريس عليه السلام ص78، بينما يذكر في ص16 عن ذكر زيارات بلد حوران بأن «قرن الحارة قرية مولد إدريس عليه السلام».

ومن دراسة هرمس في الأدب العربي، كما سنرى، نجد أن أقدم إشارة لإدريس قد جاءت منذ عصر النبوة، استناداً لما جاء في القرآن الكريم عنه، وفي الأحاديث النبوية (دون مناقشتها الآن) وعلى الأخص الأحاديث المتعلقة بالإسراء والمعراج، وأقدم ماقيل عنه جاء منسوباً إلى حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ، كما أورده صاحب الإكليل المتوفى عام 350هـ. أما ماورد مباشرة فقد جاء عن طريق الإسرائيليات، كما أوردت معتقدات اليهود في شرح وتفسير القرآن الكريم، وخصوصاً، كما سنرى، عن طريق كعب الأحبار ووهب بن منبه، يساندهم ابن عباس وغيره، وهؤلاء هم أول من قال بأن إدريس هو أخنوخ الوارد ذكره في التوراة. وكان الطبري أول من توسع في إيراد أخبار أخنوخ نسبة إلى إدريس. وأن صاحب الفهرست (النديم) قد أخذ عن الفرس ما يعتقدونه بأنه إدريس. واعتباراً من القرن الرابع وبتأثير حركة الترجمة التي نشطت في ذاك العهد، أخذت الأفكار اليونانية عن هرمس تدخل في تراثنا العربي، ولعل أوسع ماذكر عن هرمس ماجاء في كتاب (تاريخ الحكماء) للقفطي ناقلاً نصوصاً عنه ورسائل أو كتباً صغيرة. بل نرى أن ابن العبري يقول بأن القدماء قد نقلوا عن هرمس، وأنَّ نسخة بالسريانية موجودة لدى السريان (وهو أحدهم) في زمانه. كذلك هو أول من أشار إلى تمثال هرمس (يوناني) تتلمس به بعض معلوماتنا عن هرمس (لدى اليونانيين).

كتبه:

نسب إلى هرمس الكثير من الكتب التي جاءت مفصلة لدى بعض مصادرنا العربية كما يرد معنا. كذلك أوردت بعض الموسوعات، كما سنرى، بعضاً من كتبه. وقد أوردت في النصوص ثلاثة نماذج مما نسب إلى هرمس وإن اختلفت كثيراً فيما بينها بكل الوجوه، ولكن مامن شيء يمكن أن يؤكد صحة نسب هذه الكتب إلى إدريس أو هرمس.

تأثيره:

كان لهرمس تأثير ديني كبير، فهو إدريس النبي عليه السلام، ولو أن ذلك قد جاء نتيجة تغلغل الإسرائيليات في تفسيرها للقرآن الكريم، وهو بالنسبة إلينا كحقيقة أكيدة «أنه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً».

إلا أنه قد دخل في تراثنا، كما سنرى، بقوة وشاعت أفكاره في طوائفنا الإسلامية، وقد

نقلنا عن إخوان الصفا (إسماعيليي الصبغة)، وعن ابن فاتك الموحدي، وكذلك نسيب مكارم. (ولكمال جنبلاط بعض الأبحاث عن هرمس). ودخل في فكرة الإشراق كما سنرى في عرض الدكتور سامي النشار، وكما هو وارد في كتاب (عبقرية الحضارة العربية) الذي ترجمه عبد الكريم محفوض ص121 وما بعدها، كذلك له تأثير في فكرة التصوف، حتى نراها واضحة عند ابن العربي في الفتوحات المكية وقوت القلوب. وفي الفلسفة التي هي أساس تلك الأفكار المذكورة، يضاف إلى ذلك تأثيره (عن طريق مانسب إليه من كتب) في الفلك والتنجيم والطب والأدوية والكيمياء وغيرها، والمهم في هذا التأثير هو اتساع في المدى واستمرار في الزمن وقوة في التأثير. ضمن إطار الأفلاطونية المحدثة.

خطة الكتاب:

قدَّمت ثلاثة من الكتب أو القطع التي نسبت إلى هرمس الأول (كتاب زجر النفس) لهرمس الحكيم، وذلك كما جاء في النص العربي بتحقيق الخوري فيلمون الكاتب، والنص الثاني هو الذي أورده المبشر بن فاتك في (مختار الحكم ومختار الكلم) وكان لابد من اختيار نص (وهو غير جاد ولايتصف بالعلمية في زماننا مع أهميته في الزمان الغابر) هو كتاب (الكواكب السبعة السيارة) وهو كتاب صغير متكامل اخترته من عدة كتب ومخطوطات تكبره حجماً وتفوقه (خيالية) نسبت إلى هرمس.

ثم أخذت في ذكر هرمس في الكتب المقدسة، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم، كما ورد ذكره في التوراة أكثر من مرة، ولأكثر من شخصية، وقد أوردت النص الأساسي الذي يهمنا في بحثنا، كذلك أخذت النص الذي ورد في العهد الجديد عنه، كما ورد في التوراة الباطنية، وهي نصوص محذوفة من التوراة كان اليهود قد كتبوها في زمان السبي في بابل، إلا أنهم أنكروا قانونيتها بعد السبي، واختلفوا بين عدم قانونيتها أو اعتبارها درجة ثانية من النصوص المقدسة، وقد انتقل الخلاف حولها أو حول بعض النصوص منها إلى الطوائف المسيحية فأنكرتها بعضها تماماً مثل البروتستانت، واعتبرتها بعضها درجة ثانية مثل الأرثوذكس، ثم اتبعتُهُ بفصل عن كتب التفسير مختاراً أربعة نصوص مختلفة في تاريخها، ثم قدمت هرمس في النصوص العربية متتبعاً التسلسل التاريخي قدر الإمكان، وقد ورد ترتيب هرمس لدى إخوان الصفا في غير مكانه اضطراراً، وقد قصدت من اتباع التسلسل الزمني إبراز تطور فكرة

هرمس أو إدريس لدى العرب كما قلنا.

ثم قدمت بعض النصوص المختارة عن هرمس في كتاباتنا المعاصرة. ومن ثم هرمس في التراث اليوناني، وبعدها في دوائر المعارف والموسوعات وكتب الأعلام، وقد قمت بترجمة أكثر هذه النصوص الأخيرة. راجياً أن أكون قد وفقت لإبراز شخصية وأهمية هرمس الذي، لأول مرة، يصدر عنه كتاب مستقل والله الموفق.

* * *